المشرق

اصول التاريخ البشريّ وسوابقهُ

لحضرة الاب اسكندر طوران اليسوعي

تَوطِئَة

انَّ تواريخنا المقدَّسة المختصرة عن الاسفار الالهيَّة تجعل تكوين الانسان في السنة ٤٠٠٤ قبل المسيح. وفي السنكسار الروماني المستند ايضاً الى الاسفار المقدَّسة يُروى خلقُ الانسان في السنة ٥١٩٩ قبل وحدوث الطوفان في السنة ٢٩٥٧ ق م. وقد وقع اختلاف عظيم بين الكتبة الكنسيين الذين درسوا هذه المسئلة على تباين استنادهم الى نصوص التوراة القديمة وهي ثلثة العبرانيَّة والسامريَّة والسبعينيَّة فذهبوا مذاهب شتَّى حتى آتاف عدد تواريخهم من بدء الخليقة الى ميلاد السيد المسيح على المائتين تتراوح بين عددين اصغرهما ٣٥٠٠ واعظمها ٧٠٠٠ سنة

وان سأل السائل آتى هذا الاختلاف. يجيب العلماء انَّ ذلك سببهُ نَسْخُ النسَّاخ للأرقام التي نقلوها لجهلهم ولتشابُه الاحرف في حساب الجُمَّل الذي كان جارياً في الازمنة القديمة فانَّ الياء مثلاً (١٠) المساوية لعدد اثنين تشبه الكاف (٢٠) التي تساوي العدد عشرين وقس عليه احرفاً غيرها كالدال (٤) لعدد اربعة والراء (٢٠٠) لعدد مئة

لكنَّ هذا الاختلاف ليس هو الوحيد اذ يوجد اسباب غيرها تحتمل على الظنّ بان الآباء المذكورين في سفر التوراة لم يُذكر منهم الَّا بعضهم فقط فاذا قيل فلانٌ

ابن فلان» يحتمل ان يكون حفيدهُ او احد اعقابهِ الذين ولدوا بعدهُ بزمان . لنا على ذلك شاهد في سلسلة الآباء المذكورة في الجيل لوقا (٣٦:٣) حيث ذُكر اسم احدهم وهو قينان بن ارفكشاد الذي ضربت التوراة عنه صفحاً . ومما لا شكّ فيهِ انهُ لا يوجد تاريخ صريح يثبت الاجيال التي بين الخليقة وميلاد السيد المسيح

وقد زادت هذه الاختلافات في اصل الجنس البشري وتاريخهِ الاوّل في القرن التاسع عشر حيث ارتقت دروس العلوم الطبيعيّة واتّسعت دائرتها فاضطرّ العلماء الى البحث عن زمن ظهور الانسان في الارض . فان علماء طبقات الارض بحثوا عن تاريخ تكوينها . ومثلهم علماء العاديات الاثريّة الذين وقفوا في جوف الارض على هياكل الحيوانات وبقايا الجسم البشري فتساءلوا عن قِدمها . أما آراؤهم فتعدّدت على عدد الدارسين لهذه الآثار فحسب كلّ منهم حساباً مختلفاً وفقاً لنظرهِ الخاصّ فمنهم من حمل ذلك على العلم البَحت ومنهم من تأثّر في حسابهِ بدوافع اخرى شخصيّة او مذهبيّة مشايعاً لبعض المذاهب الفاسدة في القرن التاسع عشر كمذهب الماديّين ومذهب الاباحيين ثم مذهب دروين . فانّ انصار المذهبين المادي والاباحي كان جُلّ قصدهم ان يناقضوا معلومات الاسفار المنزلة في تاريخ الانسان والآباء الاوّلين ويتّخذوا ذلك وسيلةً لابطال صحّتها في كلّ الامور التاريخيّة والعلميّة ومن ثمّ ان ينكروا وحي الله بها . وذلك ما حدا بهم الى زيادة عدد الاجيال التي نشأ قبلها الانسان على زعمهم لتزيد مناقضتهم للاسفار المقدّسة

ثم ظهرت الدروينيّة وضربت على طنبورهم بزعمها انّ الانسان اصلهُ من القرد او من حيوان آخر فاحتاجوا ليصيب قولهم بعض الاعتقاد الى إطالة الازمنة وتوفير الاجيال ليستطيع الحيوان غير الناطق بالتحوّل الزمن وسياق القرون ان يبلغ الى حالة حيوان ناطق كالانسان . وبما انّ تواريخ كلّ الشعوب تشهد بانّ اجدادها الاوّلين كانوا ذوي حضارة راقية وتمدّن بليغ اضطرّ الماديّون والدروينيّون ان يقدّموا على تلك التواريخ الوفاً بل عشرات الوف ومئات الوف من السنين ليقرّبوا الى العقول صحّة مدّعاهم

وقبل انتقادنا لهذه المزاعم نورد هنا ما كتبهُ احد الاختصاصيين الموثوق بقولهم

العلّامة جوزف ديشيليت (J. Décheletre) في كتابهِ دستور العلوم الاثريّة السابقة للتاريخ (Manuel d'Archéologie préhistorique)

« كان علماء طبقات الارض نحو السنة ١٨٦٠ اعتادوا ان يبالغوا في قِدَم الانسان على الارض الذي تأكّد ظهورهُ في الطور الجليديّ اي اوائل الطور الرابع . فجعلوا ذلك الطور بين ٢٤٠٫٠٠٠ الى ٨٥٠٫٠٠٠ سنة فكان جبرئيل دي مورتيله (G. de Mortillet) يزعم انّ الانسان ظهر في تلك الازمنة السابقة للتاريخ . لكنّ تلك الحسابات ينكرها اليوم اصحاب العلم الذين درسوا حديثاً درساً مدقّقاً اطوار الجليد في بعض البلاد . فانّ الجيولوجيّ الشهير المسيو دي لا پارانت (M' de Lappa-rent) قد اختصر دروس وصفائهِ المحدثين فبيّن انّ آخر طور جليدي الذي فيهِ ظهر اجدادنا الاوّلون اصحاب الظرّان واختبروا تقلّباتهِ انّما يستطاع اثبات مدّتهِ وهي لا تتجاوز كما يُرجَّح الوفاً قليلة من السنين . . . »

وقد ظهرت بعد ذلك تآليف حديثة بيّنت انّ الانسان الاوّل في القارّة الاوربيّة لم يدرك الّا اواخر الطور الجليديّ . ومن ثمّ يقرّ العلماء المحدثون انّهُ من المستحيل تحديد اوّل ظهور الانسان وانّ الرقوم الباقية التي كان بعض علماء القرن السابق يرونها عن اصل البشر كلّها فريّة وهميّة لا يجوز الاركان اليها »

دعنا الآن نبحث عمّا يفيدنا التاريخ الصحيح عن اصول الامم بعد الاكتشافات الحديثة التي جاءت في عهدنا مؤيّدة للحقيقة والمزيلة للاوهام

والحق يقال انّ القرن التاسع عشر جدّد العلوم التاريخيّة بما استخرجهُ من الآثار من بطن الارض بالحفريّات العديدة التي أُجريت في مصر وفي بابل والعراق وفي اقريطش . فكم ظهر هناك من الآثار المفيدة للتاريخ كالدُّمى والتماثيل والنقودات والكتابات على الحجر والبرديّ والمكاتب المنقورة في الآجرّ المشويّ . وزادت قيمة هذه الآثار بأن وفّق الله العلماء على حلّ الغازها وكشف اسرارها المغلقة . فكم احرز التاريخ من تلك الاكتشافات من المعلومات الراهنة التي أتت كلّها مثبتة لصحّة الأسفار الالهيّة مخيّبة لما كان يرجوهُ اعداء الوحي من مناقضتها

ثمّ قام بعد ذلك علم الحادثات الطبيعيّة والآثار المكنونة في بطن الارض من بقايا الحيوانات والانسان . فظهر منها الفذّ العديد . والعلماء مع اقرارهم بانّهُ يصعب

تحديد تاريخها يقرُّون بانها سبقت بزمن مديد عهد الآثار الكتابيَّة المكتشفة في مصر وبابل

فعلى هذين الركنين اعني آثار الشعوب وآثار الحيوان والانسان الماديَّة يُبنى كلّ علمنا باصول الانسان

١ اصول تواريخ الامم

فلنستقرِ تواريخ الدول العظيمة التي ظهرت على الارض لاسيَّما التي اشتهرت بعمرانها وحضارتها لنطَّلع على ما يُعرف من اصولها التاريخيَّة بل ما سبق تاريخها على قدر الامكان. فلنباشر باقربها عهدًا الينا ونرقى الى ما وراء زمانها

رومية

منشأ رومية المقرَّر كان في السنة ٧٥٣ قبل المسيح. ولا يُبدأ بما اشاعهُ بعد ذلك شعراء اللاتين عن روابط رومية ومدينة طروية. فان اقوالهم لا تتجاوز اساطير الاوَّلين المصنوعة. وكان سبق الرومانيين في سكنى ايطالية شعوب نعرف اسماءها منهم الاوترسكيُّون والأمبريُّون واللاتين. وقد خلَّف الاوترسكيُّون آثارًا معتبرة وكتابات حجريَّة عديدة لم يَقرَ العلماء حتى يومنا هذا على قراءتها ومعرفة لغتها. فلم يزل معظم تاريخ تلك الامم مجهولًا. وكان يسكن قبلهم شعبٌ آخر يُدعى بالپيلاسجيين اقاموا بنايات جباريَّة تدلُّ على سطوتهم. على اننا نجهل اصول تلك الشعوب كلها فليس لدينا علم ثابت عن اصولها وقدمها

اليونانيون

سبقوا الرومانيين في سُلَّم الاجيال. واتَّفق المؤرخون على انَّ اوَّل حادث تاريخيّ تغنَّى في ذكرهِ شعراؤهم انما هو محاربة مدينة طروية. ان اليونان من العنصر المعروف باللهلِّيني (Hellènes). اما اهل طروية فالمرجَّح انهم كانوا من العنصر البلاسجيّ الذين قسمٌ منهم سكن ايطالية قبل الاوترسكيين كما رأيت وقسم آخر سبق في ارض اليونان السلالة الهلينيَّة. اما البلاسجيُّون فالمظنون انهم كانوا شعباً ساميًّا وليبيًّا. ولعلَّ اسمهم هو عينهُ اسم الفلسطينيين الوارد ذكرهم في التوراة. ولا يستبعد كونهم

عاصروا مملكة مينوس البحريَّة التي استخرج آثارها العجيبة العلَّامة الالماني شنيان (Dr Schneemann) بحفرياته في جزيرة قريطش حيث كانت عاصمة ذلك الملك وقصورهُ الملكيَّة

وقد سبق في اليونان البيلاسجيين قبائل معاصرة لعهد الظرَّان الذي وُجدت منهُ مصانع شتَّى . امَّا حلول الهلينيِّين هناك فليس عليهِ دليل ثابت

أنفق المسيو شنيان المذكور مبالغ من مالهِ لاكتشاف موقع مدينة طروية وساحة الحرب الاولى التي لسعرها الهلينيُّون ولاستخراج خزائن بريام آخر ملوكها التي اخبر الشاعر هوميروس انَّها تلفت في خراب المدينة ودُفنت في اطلالها لمَّا اضرم الهلينيُّون فيها النار لحريقها . فجاءت حفرياتهُ محقِّقة لآمالهِ واكتشف بحفرياتهِ بعد سنين طويلة الخزائن المذكورة وتحقَّق ان مدينة ايليون التي دمَّرها الهلينيُّون كانت بُنيت فوق مدينتين أُخريين اقدم منها عهدًا كان اهلها يحاربون باسلحة حجريَّة من الظرَّان مع انهم لم يجهلوا استعمال المعادن . ومما وقف عليهِ شنيان انَّ تحت اقدم المدينتين المشار اليهما كانت ربوة من الاخربة القديمة بالغ عمقها بالقياس ١٦ مترًا . ثمَّ تحقَّق ايضاً انَّهُ بُني فوق مدينة ايليون اربع مدن اخرى توالى عهدها الى زمن الرومان فبلغ مجموع تلك المدن الراكبة على بعضها منذ طور الظرَّان الى القرن الثاني من المسكونة الرومانيَّة سبع مدن مختلفة الحضارة والعناصر

اليهود

انَّ تاريخ الشعب الاسرائيلي يرقينا الى ازمنةٍ سبقت العهد اليوناني . فانَّ ابراهيم الخليل هجر بامر الله بلاد ما بين النهرين نحو الفي سنة قبل المسيح فاحلَّ ارض كنعان . فلمَّا عاد نسلهُ بعد اليهوديَّة المصريَّة من ارض النيل فتحوا عنوةً تلك البلاد التي عُرفت بارض الميعاد وذلك نحو السنة ١٦٠٠ ق م . على انَّ تلك الاقطار التي أُطلق عليها بعد حلول الاسرائيليين في ربوعها اسم اليهوديَّة او اسم فلسطين او اسم سوريَّة ايضاً كانت قبلهم وقبل ابراهيم ابيهم موطناً لبني كنعان ومنهم العمُّوريُّون والحثيُّون واليبوسيُّون والفلسطينيُّون وغيرهم ممَّن دوَّن الكتابُ الكريم اسماءهم لوقوعهم بمجاورة بني اسرائيل الَّا انَّ اخبارهم لا تزال مجهولة والامل معقود بان الكتابات الحثيَّة تفيدنا شيئاً من ذلك اذا ما تمكَّن العلماء من قراءتها قريباً انشاء الله

مصر

كان الفراعنة باسطين على مصر سيطرتهم منذ عشرين قرناً بنيف بعد ان بنوا الاهرام ونحتوا تمثال ابي الهول في ربوعهم لمَّا نزل يعقوب حفيد ابراهيم الى ارض النيل واستوطنها مع اسرتهِ . أمَّا الفراعنة فكانوا من سلالات مختلفة تتابعت بعد منيس منشئ السلالة الاولى . وقد اختلفوا في طول مدَّة مُلكهم فالعلماء الفرنسويُّون يزعمون انَّ الزمان الفاصل بين منيس والسيد المسيح يتراوح بين ٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ سنة . ويرتأي الالمان انَّ هذه المدَّة زائدة يجب تقصيرها ٢٨٠٠ سنة . امَّا الانكليز فتتردَّد حساباتهم بين ٣٥٠٠ و ٤٥٠٠ سنة . والمرجَّح انَّ تلك المدَّة لا تزيد على ٤٠٠٠ سنة

ألا انَّ مصر كانت عند قيام منيس قطراً عامراً ومملكةً منظَّمة ذات حضارة بالغة بفضل أمَّة سابقة تقدَّمت عهدهُ وتلك أمَّةٌ زنجيَّة كما يظهر من الآثار الباقية الى يومنا . ومما لا مرية فيهِ انَّ العلماء اكتشفوا مدافن سبقت زمن الفراعنة يرتقي عهدها الى طور الظِّران يمكن ترقيتها الى ٧٠٠٠ سنة ق م وازيد

بلاد الكلدان وعيلام

كان موقع هاتين الدولتين في جوار خليج العجم في القسم الاسفل من وادي دجلة والفرات وكانت كلتاهما مزهرة عامية حوالي السنة ٤٠٠٠ ق م وذلك في زمن ابتناء الفراعنة لاهرامهم . وكانت مملكة الكلدان على ضفَّة الفرات اليمنى وفي جهة الشمال بينهُ وبين دجلة وعاصمتها بابل . امَّا عيلام فكانت تمتدّ بين دجلة ومشارف بلاد ماداي وكانت عاصمتها شوشن التي أطلق اسمها على بلادها ايضاً . .

اعتاصت لغة عيلام على المستشرقين الى عهدنا فلم يستطيعوا فكّ رموزها بخلاف لغة بابل المعروفة باللغة المسمارية لشبه حروفها بالمسامير فانَّ العلماء تمكَّنوا من قراءة آثار الكلدان وهم لا يزالون ينشرون منها كلّ يوم ما لا يُحصى عددًا . .

ولنقدم ما عُرف من آثار هاتين المملكتين يصفها وصف الممالك الراقية العمران في السنة ٤٠٠٠ ق م . ولو رجعنا الى ما ورد في نصوص مكتبة الملك اسوربنيبال لوجب علينا القول انَّ تلك الممالك كانت زاهية ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد . ومن المؤكَّد انَّ الحفريات التي انجزتها البعثة الفرنسويَّة في شوشن كشفت للعيان آثاراً تنبئ بتقدم

وجود بني البشر قبل ذلك الزمان بعهد مديد

فانَّ العلَّامة الاسوجي مونتيليوس في محاضرة القاها في مؤتمر آثار البشر والعاديَّات السابقة للتاريخ زعم انَّ المدَّة بين زماننا واوائل مملكة عيلام تبلغ الى ٨٠،٠٠٠ سنة وقد بنى حسابهُ على ما هناك من اطلال مدينة شوشن التي ترتفع الى علوّ ٣٤ مترًا فحسب القي سنة لكل خمسة امتار من الأنقاض والاطلال المتكاومة . لكن حسابهُ هذا قليل الضبط لأن كثافة الاطلال تختلف بموجب كثرة السكان وقلَّتها فمن ثمَّ يقال ان في قياسهِ هذا غلوًّا والاقرب الى الصواب ان يقال ان تلك الاطلال تدلُّ على مدَّة نحو عشرة آلاف سنة الى زمن السيِّد المسيح (١

ففي ربوة شوشن المذكورة المتكاومة بعد ان بلغ ارباب الحفريَّات خمسة امتار لم يعودوا يجدون ادوات من حديد بل ادوات من النحاس والشَّبه (البرونز) وذلك الى عمق ١٢ مترًا . وما تحت هذا العمق لم يجدوا من الادوات سوى الظِّران

الصين

لم تُفدنا الآثار الصينيَّة التاريخيَّة الراهنة حتَّى اليوم ما يرقي دول الصين الى ما وراء الفي سنة قبل المسيح

الهند

جاء في اساطير الهنود انَّ اصلهم يرتقي الى الوف الالوف من السنين امَّا كتبهم التاريخيَّة التي دُقِّق في دراستها العلماء فانها تبيِّن انَّ تنظيم تلك الاقطار وعمرانها لا يتجاوزان الالف والخمسمائة سنة الى الالفي سنة قبل المسيح . واقدم ما يُعرف من آثار الهنود يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وما يروى فوق ذلك العهد فهو من اضغاث احلامهم وخرافاتهم (٢

فيحصل من استقرائنا للدول القديمة انَّ مملكتي الكلدان وشوشن ثم بعدهما مصر هي الممالك التي يحقّ لها بالقدمة على سواها . وهذا ممَّا تؤيِّدهُ شهادة الاسفار

---

١) راجع معجم الآثار D'Alès : Dictionnaire apologétique, *art.* Homme

٢) راجع Mouland et Vincent : Apologétique Chrétienne

الالهيَّة التي تجعل مهد البشريَّة في الشرق بين دجلة والفرات . ومن مآثر تلك البلاد يستفاد انَّ اقلَّ ما يجب اثباتهُ من الزمان لوجود البشر ٧٠٠٠ سنة الى عهد المسيح . وذلك بقطع النظر عن عهد الظرَّان السابق للتاريخ

وفي وجود الظرَّان دليل واضح على وجود الانسان اذ به يثبت استعمال البشر الاوَّلين للحجارة كادوات سلاحهم ومعاشهم بتحتهم للصوَّان على شكل المقاطع والسهام والمناشير كما سنبيِّن ذلك فلا بُدَّ اذن من اعتبار تلك الاحقاب التي جهل فيها الانسان استعمال المعادن واليها يشير سفر التكوين(٤ : ٢٢) بقولهِ عن تُوبَل قاين انهُ «كان اوَّل صَيْقَل للنحاس والحديد» مصرِّحاً بذلك انَّ البشر لم يعهدوا قبلهُ استعمالها

ومما تبيَّن من الحفريَّات المحدثة انَّ اوَّل معدن صاغهُ بنو البشر النحاس ولاسيَّما البرونز او الشَّبَه وهو مركَّب من النحاس والتصدير . اما الحديد فما أُلقوا استعمالهُ الَّا بعد ذلك بزمان . وعلى هذه الادوات المختلفة بنى القدماء كلامهم فتراهم يذكرون طور الظرَّان ثمَّ طور البرونز ثمَّ الحديد حسبما بلغهم من علمائهم . وهذه الاطوار الثلثة اي الظرَّان والبرونز والحديد متوالية في معظم الدول لم تُستَعمل سَواء في زمن واحد فانَّ لاستعمال البرونز في اوربَّة الغربيَّة خلف طور الظرَّان بعد التي سنة تقريباً للعالم . فذلك الزمن السابق للتاريخ لم يكن خاوياً من العمارة بل لدينا منهُ آثار عجيبة تنبئ برقي اهلهِ منها تلك القرى المبنيَّة على اخشاب راكبة فوق البُحيرات . ومنها تلك المغاور والكهوف التي وجدت في جهات جبال البرينايي وضمنها تصاوير مختلفة ملوَّنة تمثل الحيوانات التي كان يصطادها اهل ذلك الجيل قد فُقد بعضها بمدى الزمان كالبقر الوحشي وغيره يرقى عهد تصويرها الى ١٦٠٠ بل الى ٢٠٠٠ سنة قم . وتفيدنا شيئاً من احوال اولئك القوم . ولا ننكر انهُ كان في ايَّامهم قبائل همجيَّة تعيش في البوادي كما نرى البعض منها في ايَّامنا في مجاهل افريقية واميركة

ولو تصفَّحت التواريخ القديمة لرأيت انهُ في كل اطوار التاريخ البشري قد وُجدت امم تَرقَّت في مراقي الحضارة حتَّى بلغت اوج العمران ورقمت منار المدنيَّة كالزمان واليونان والفينيقيين والمصريين والكلدان واهل اقريطش . وبقرب مكانهم وزمانهم تجد امماً أخرى دنيئة ذليلة همجيَّة تعيش عيشة الحيوان

٢ عهد الظرّان واحوال الشعوب الاولى

وان سأل السائل ما السبب لهذا الاختلاف بين تلك القبائل القديمة وانتشار المعادن بين بعضها دون البعض . اجبنا انَّ البشر الاوّلين كانوا اذ اكثر عددهم يتشعّبون شعباً مختلفة ويبتعدون عن المراكز الاوليَّة التي كانوا ممدودين في جملتها . وبابتعادهم فقدوا شيئاً وشيئاً تلك الصنائع المدنيَّة لعدم وجود صَنعة بينهم يختصُّون باستحضارها فبقوا في خمولهم وفي بربريَّتهم

وما لا شكَّ فيهِ انَّ الامم باجمعها اجتازت الطور الحجري المعروف بالظرّان . وليس ذلك دليلًا على انَّها كلَّها مرَّت بطور الهمجيَّة على شبه البهائم خالية من كلّ دين وادب . فانَّ هذا المزعم باطل تنقضهُ الاكتشافات الحديثة وانَّما يشيعهُ الماديّون والدرويشيّون تأييداً لمذهبهم الكاذب زاعمين انَّ البشريَّة سارت على نَمط واحد فنشأت في الطور الهمجي ثمَّ رقيت الى التمدُّن التامّ

وبياناً لهذه القضيَّة فلنعتبر نواميس العمران مدنيَّةً كانت او دينيَّة وكلُّها عائد الى خير المجتمع البشري . ومما لا شبهة فيهِ انَّ ذاك المجتمع الانساني كان في اوَّل امرهِ منحصراً في العشيرة والعيلة فكان يرئسها الجدّ او الاب يجمع فيهِ السلطة المدنيَّة والدينيَّة ويقوم كلامهُ مقام الشريعة الحيَّة . ولا نرى من هذا القبيل موجباً للقول بان تلك الهيئة البشريَّة الاولى كانت قليلة الادراك وادنى من المشائر التي اتت بعدها وان لم يكن لها دستور كتابيّ

ثمَّ ان العمران يتوقَّف على عدَّة مبتدعات واكتشافات يحظى بها البشر بتوالي السنين والاجيال فيورثها السَّالف للخلف وينتفع الابناء بما توقَّف اليهِ الاجداد تباطأ بثاقب فهمهم وبهذا المعنى يجوز القول انَّ الانسانيَّة في ترقٍّ متواصل . على انَّ للآباء الاوّلين فضلًا في ذلك اذ مهَّدوا الطريق لأخلافهم بينما كانت الوسائل لديهم قليلة فاكتشفوا عدَّة اشياء كانوا اليها في حاجة ماسَّة لمعاشهم وسكناهم وصنائعهم وكتابُ التوراة قد اشار الى بعضها فقيل مثلًا عن يابَل (تك ٤ : ٢٠) انَّهُ «هو ابو سكني الخيام ومقتني المواشي» . وقيل عن اخيهِ يوبل (٤ : ٢١) انهُ كان «أبا كلّ عازفٍ بالكنَّارة والمزمار» ومن هذه النصوص يتَّضح اكتشاف اولئك الاوّلين للفنون الجميلة

فضلًا عن الصنائع والحرف وقد اوقفنا سفر التكوين سابقاً عن احتراف قاينن بالحراثة (تك ٤ : ٢) وهذا مما يقتضي استعمال بعض الادوات . وكذلك كان هابيل راعياً . وهذا مما يشير الى معرفته بتدجين الشاء والمواشي . ويستفاد من السفر عينهِ انَّ قاينن اعتزل عشرة بني آدم ليعيش في شرقي عدن حيث بنى مدينة (تك ٤ : ١٨) . وكل ذلك لا يقوم الَّا بمعارف جمَّة صناعيَّة . وكذلك لم يخلُ الاوَّلون من الشعور الادبيّ . فترى الابوين الاولين (تك ٣ : ٧) يخيطان لهما مآزر ليستترا جسمهما من عُريهِ

فلا شيء اذن يؤيد مزاعم الدروينيين والماديين بانَّ البشر الاوَّلين كانوا دوننا عقلًا فاننا لو وُلدنا في مهدنا مثلهم في ذات الظروف التي نشأوا فيها لكنَّا مثلهم . وانَّما الاختلاف اليوم هو كون الولد في زمننا ينشأ في عائلةٍ متمدّنة فيحرز لهُ عدَّة معلومات من صغرهِ تفتح ذهنهُ وتجعلهُ ارقى من اترابهِ المولودين في عهد الظرَّان . فان طبيعتهما واحدة وانَّما اختلفت الظروف فينشأ ابن العصر متفقهاً قديرًا على توسيع نطاق العلوم وترقيتها

وفي اعتباراتنا هذه قد قطعنا النظر عمَّا غرسهُ الله في عقل الابوين الاوَّلين من المعارف الغريزيَّة بنعمةٍ فائقة للطبيعة لداعي كونها رأسي النسل البشري كما اننا لم نذكر ما بقي من آثار تلك العلوم في اذهانها بعد خطيئتها وسقوطها من مرتبتها الاولى . ولسنا لننكر ان بعض القبائل تهوَّرت الى حالةٍ هي دون مقامها الاصلي وسنبيّن سبب ذلك ويكفينا الآن ان نثبت بعض اكتشافات الانسان في طور الظرَّان استنادًا الى العلوم الحديثة .

ومما يدلُّ على حضارة البشر الاوَّلين معرفتهم للنار . فحيثما وُجدت آثار الانسان وُجدت ايضاً آثار مستوقدهِ . وهذه لعمري فائدة كبيرة لمعاشهِ . ومن مآثرهِ الحسنة نحتهُ للحجارة والصوَّان فاتَّخذ من الظرَّان ادوات مختلفة كالفؤوس والمرَّاوى والمقاطع والمدَى والمناشير . وكذلك انتفع من عظام الحيوانات التي كان يقتنصها فاتَّخذ منها السلات والامشاط وضروب الحلي . وقد استفاد من علم الحراثة لاستغلال القمح والشعير . وعمل لنفسهِ ادوات شتَّى من خشب الشجر . فكل هذه الاكتشافات الاولى لا تدع شبهةً في سعة عقل البشر الاوَّلين وهي تثبت شواهد الكتاب الكريم التي سبقت اليها الاشارة

ثم توفّق البشر الى اكتشاف المعادن فكان اوّل معدن باشروا معالجتهُ النحاس والقصدير لسهولة تذويبها فتكّنوا بمزجهما من تركيب الشبَه ذي الصلابة القوية . وكفى باكتشافهم هذا دليلًا على ثقوب عقلهم . . ثم عقب ذلك اكتشافهم للحديد وتذويبهُ وتجريدهُ من كل خُبث يمتزج بهِ

واذ خشي اولئك القوم هجوم السباع اقاموا لهم فوق البُحيرات عرائش كانوا يسكنون فيها ليلًا وجعلوا بينها وبين البرّ جسورًا كانوا يجتازون فوقها في النهار ثمّ يقطعونها ليلًا . وقد وجدوا من هذه الماكن المركوزة فوق المياه امثلةً عديدة في بلاد شتى كسويسرة وغير جهات من اوربّة بل في جهات اميركة الجنوبيّة بين قبائلها القديمة . وقد دعا مكنشفو اميركة بلاد فنازويلة بهذا الاسم اذ وجدوا قرًى مانيّة كلُّها منصوبة فوق البحيرات مشيرين باسمها الى البندقيّة الواقعة بين خلجان المياه . فوجود مثل هذه الابنيّة الخشبيّة في انحاء متباينة احسن دليل على ما طُبع عليهِ قدماء البشر من جودة الفهم وذكاء العقل

ومن دلائل العقل البشري في اطوارهِ الاولى ما وقفوا عليهِ من تصاويرهم ونقوشهم ومحتهم فمن ذلك ما اكتشفوهُ في اعماق الكهوف والمغاور من صور الحيوانات كالثوْر والدبّ والوعول (rennes) والخيل فرسموا صورها على جدران تلك الكهوف تحت اسراب الارض بمدى النظر ان التي كانوا يحتوها وذلك بدقّة عجيبة تُفرز صورة كل حيوان عن سواه . وبعض هذه التصاوير قد وجدوها محفورة على العاج وعظام الحيوانات وعلى اصداف البحر . افيُنكر انّ مثل هذه الاعمال تشهد على توقّد اذهان اولئك البشر في تلك الازمنة الماديّة

وكما يجب القول انّ ذوي المجتمع البشري الاوّلين كانوا متّصفين بنجابة العقل يجب ايضاً القول انّهم كانوا عارفين بالدين يتمسون فرائضهُ . ذلك ما يمكن اثباتهُ من النظر الى مدافنهم القديمة واكرامهم لموتاهم فكثيرًا ما جعلوا مع الميت اسلحتهُ واقاموا ضريحاً فوق جثّتهِ . وهذا مما يُستنتج منهُ اعتقادهم لحياة اخرى غير الحياة الحاضرة . ولولا ذلك لما عُنوا بتلك الرمم البالية . والاعتقاد بحياة أُخرى يستلزم الاعتقاد باللاهوت وان شُطروا بصفات اللاهوت ولم يُحكموا معرفة جوهرهِ الخاصّ . قال العلّامة مرلار وفسان (Apologétique, 82) : «انّ الاكتشافات الحديثة قد

استخرجت من باطن الارض عدَّة مدافن كانت تحتوي عُوَدًا وتمائم وحمائل شتَّى اشار بها القدماء الى تدينهم، وقد ذهب البعض انَّ الكهوف التي وُجدت فيها النقوش السابق ذكرها انما كانت معابد يجتمع فيها قدماء البشر لإكرام المعبود غير المنظور

ومما يحمل على الدهش انك لو فحصت تلك البقايا من الازمنة السابقة للتاريخ كمنحوتات الحجر ومصنوعات العاج والقرون والتصاوير الدقيقة على صخور الكهوف لرأيت انَّ اولئك القبائل تسبق القبائل الهمجيَّة التي بقيت الى يومنا وتفوق عليها فرقاً عظيماً . لسنا نرضى ان يقال عن عرب البادية انهم من الهمج لما لهم من الشرائع والعادات الدينيَّة المألوفة والنظام الاجتماعي ومع ذلك لا نراهم يأتون شيئاً من اعمال الصناعة والفنون كاولئك الاقوام . ولا جرم انَّ القليل مما اكتُشف من مصنوعات الاقدمين يدلُّ على كثير غيرها مما أخفى عليه الدهر (١)

فاين كلّ ذلك من مزاعم دروين وذويه ومن اكاذيب الماديين بانَّ البشر الاوَّلين كانوا بالحيوان الاعجم اشبه منهم بالانسان وأنهم كانوا متكمين في ظلام الجهل يعيشون في الصحارى والغابات يقضون الحياة من مولدهم الى موتهم كالبهائم

وهذه خلاصة الدروس الاثريَّة التي قرَّرها احد الاختصاصيين جوزف ديشلت (Manuel d'Archéologie préhistorique, 1914) فنقلتها مجلَّة الابحاث في عددها الصادر في ٢٠ آذار سنة ١٩١٦ قال :

« اذا قابلنا بين ابحاث العلماء الذين درسوا العاديَّات البشريَّة في كل الاقطار المعمورة في اسبانية والبرتغال وفرنسة وسكندينافية وايطالية والمجر واليونان ومصر والبرازيل الخ نجد أنهم توصَّلوا الى النتائج الآتية المدهشة :

١ انَّ آثار البشريَّة الاولى قد ظهرت في مختلف البلدان في زمن واحد تقريباً وذلك تباعاً على التوالي الآتي : الظرَّان المنحوت ثمَّ الظرَّان المصقول ثمَّ البرونز ثمَّ الحديد الخ

٢ ومَن تتبَّع هذه الآثار في نواحي المعمور يمكنهُ ان يستدلَّ على مبدإ بني البشر وتنقلهم في البلاد

(١) راجع مجلَّة كوسموس Gibier-Duhamel, Cosmos, 11 Avril, 1896

٣ والظاهر انَّ مبدأ انتشار البشر شرقاً كان او غرباً انَّما نشأ من مركز اوَّل موقعهُ في بلاد الكلدان ومصر .

٤ ومما أثَّر في مَسير القبائل والسلالات البشريَّة الاولى حرصهم على اقتناء المواد الثمينة كالعنبر والملح المعدني والقصدير والحديد . وجلاؤهم المذكور يمكن تدوينهُ على خريطة اوربيَّة بكل ضبط

٥ قد وجدوا في سائر البلاد آثارًا بيِّنة عن معتقدات اولئك الشعوب الدينيَّة منها صور بعض الحيوانات راقية الى عهد الظرَّان متَّخذة على ما يظهر كحرز للقبائل (totems) كما يُرى بعضها اليوم بين قبائل افريقية واوسترالية المهجيَّة او كانوا يلوذون بشفاعتها كما نرى اليوم في بعض المشاتر غير المتمدِّنة . ومثلها التصاوير الجداريَّة السابق ذكرها في كهوف فرنسة الجنوبيَّة وفي جبال كاليفورنية وفي اوسترالية . ثمَّ اقاموا في آخر عهد الظرَّان تلك الانصاب الحجاريَّة (dolmens, menhirs) فوق قبور زعمائهم وهي بلا شكّ آثار دينيَّة كتذكار لموتاهم

٦ ولو رُسمت خارطةٌ للتنقلات البشريَّة الاوَّليَّة . لظهر انَّ مسير بني البشر كان خصوصاً على شواطئ البحار لا يكاد يعرِّج الى باطن البلاد . ففي اوربَّة ترى انَّ المجتمع البشري الذي ظهر اولًا في نواحي الكلدان او في مصر قد تقدَّم الى جهات الاناضول وجزائر بحر السفيد واليونان ومنها الى ايطالية ثمَّ اسبانية ثمَّ غالية ثمَّ بريطانية العظمى الغنيَّة بالقصدير ثمَّ إسلندة حيث معادن الذهب

وقد رسم العلَّامة ج . البوت سميت (G. Elliot Smith) الكرة الارضية وفقاً للاكتشافات الحديثة وهو ايضاً يجعل لمسير البشر خطًّا متواصلًا على سواحل البحار يبتدي من بلاد الكلدان ومصر ثمَّ متَّجهاً الى اليونان وايطالية . وميناً نواحي اليابان ولميركة الشمالية مارًّا بشواطئ بسواحل آسية والجزائر . ثمَّ سائرًا على طريق ارخبيل الاوقيانوس في لزمنة مواسم خطّ الاستواء الى جهات پيرو والمكسيك حيث وُجدت آثار الحضارة السابقة للتاريخ بتمام الشبه مع ما وُجد في اوربَّة ثمَّ بلغ الى زيلندة الجديدة على طريق جزيرة الفصح . وعلى هذا المنوال قد أتت كلّ الاكتشافات للآثار السابقة للتاريخ مثبتة قول الكتاب بان السلالات البشريَّة الاولى كان بدء جلائها من بلادنا الشرقيَّة

وقد ضربنا الصفح في كلامنا السابق عن مسألة الطوفان فانَّ المهاجرة البشريَّة سواء كان الطوفان عموميًّا شاملًا لسائر المعمور او كان محليًّا فقط لم يختلف سيرها الّا ان يقال انَّها بدأت قبل حدوث الطوفان في بعض البلدان او انَّها تمت وقوعهُ بانتشار بني نوح بعدهُ (لهُ صلة)

عجائب التلفون اللاسلكي في الولايات المتحدة

بقلم حضرة الاب رفائيل نخله اليسوعي

الولايات المتحدة منبت العجائب والغرائب وذات البيوت الناطحة عنان السماء . بلادٌ اصبحت فيها السيارات في عداد الحاجيات حتى بين اصاغر القوم ، وراجت فيها قبل سواها سوق « البريد الطائر » اي زواج بلاد لا تطلع شمسها في الصباح الّا على آلاف من آيات الاختراع طالعةً معها فوق أفق المدنيّة العصريّة ، ولا تغيب في المساء الّا وقد ذرّت مع نجوم السماء كواكب اجمل واكثر منها سطوعاً في جلد المعارف البشريّة مُزيلةً بالتدريج ظلماته الحالكة . أجل هي الولايات المتحدة التي تناصرت في اقطارها النسيحة ارقى الشعوب حضارةً فلا بدع أن بلغت بفضلهم في الرقي المادّي والعلمي شأوًا قصرت عنه في يومنا هذا اعظم الامم الاوربيّة !

من اغرب غرائب الولايات في الآونة الاخيرة ترقي التلفون اللاسلكي وقد أطلق عليه اسم رَدْيوفون (radiophone) وهو اخف لفظاً ولذلك آثرناه في هذه العجالة وان لم يكن شائعاً في الشرق . والغرض من الصحائف التالية إطلاع قرّاء المشرق على بعض ما نعرفه من عجائب الرديوفون في بلاد « العم سام » . ونلتمس من باب هذا الموضوع عذرهم لعدم مقدرتنا على الاحاطة بكل اطرافه

منذ ارسل مخترع التلغراف اللاسلكي المهندس الايطالي ماركوني البرقيّة الاولى بين اوربة واميركة في السنة ١٩٠٢ انقضت خمسة اعوام قبل ان يستطيع مواطنه